تقدُّم فن العلاج

بدأ الطب اليوناني على ما روى الاقدمون باسقليبيوس قيل انهُ جاءهُ بالهام من الله وقيل انهُ اخذهُ عن هرمس الاول وبقي محفوظاً في ولده الى ان اذاعهُ ابقراط وهو السادس عشر وقيل السابع عشر من نسله فالف فيهِ وعلَّم الناس ووصف الامراض واسبابها وعلاماتها وعلاجها . ثم جاء بعدهُ ثاوفرسطس احد تلامذة ارسطوطاليس وابن خالتهِ وهو اول من الف في النبات ثم قام بعدهُ ديوسقوريدس والف كتابهُ المشهور في المفردات الطبية وجالينوس ولهُ كتاب في المفردات ايضاً . وزاد الروم في القسطنطينية والعرب في زمن نهضتهم شيئاً كثيراً من هذه المؤلفات . واشهر كتاب عربي في المفردات الطبية جامع كتاب الادوية والاغذية لابن البيطار فانهُ جمع فيهِ ما كتبهُ اليونان والرومان والعرب وما اختبرهُ بنفسهِ وفيهِ من المفردات الطبية نحو ثلاثة آلاف اكثرها من النبات

وكان اعتماد الافرنج في الاعصر الوسطى على الطب اليوناني والطب العربي وكان العلاج قائماً بالفصد ووصف الادوية المؤلفة من عقاقير كثيرة حتى اذا اخطأ بعضها اصاب البعض الآخر فمفردات الترياق مثلاً بلغت على ما قيل ٩٦ صنفاً وكان يعالج بهِ لدغ الافاعي والعقارب والزيلاء رداء المفاصل وضخامة الطحال وخفقان القلب والخنازير والبواسير وغيرها من الامراض . فاذا اخذنا اي كتاب من كتب الطب القديمة وبعض الكتب الحديثة ايضاً وجدنا فيهِ من الادوية والمركبات ما تعجز الذاكرة عن حفظهِ

ثم اخذ الافرنج يتقدمون في التشريح والجراحة والتشخيص والكيمياء ومعرفة منافع الاعضاء فامكنهم بذلك السير في العلاج على طرق علمية معقولة واكتشف القرع والسماع وميزان الحرارة ثم وضع فيرخو اساس الباتولوجيا الخلوية وكوخ وباستور اساس علم الجراثيم واكتشفت الحيوانات الحلمية التي تسبب بعض الامراض فامكن بذلك علاج الامراض بازالة اسبابها وقد كانت تعالج قبلاً بعلاج اعراضها

وتأخر العلاج كثيراً في اواسط القرن الماضي فكان الاطباء يعولون على تشخيص الداء ولا يهتمون بمعالجة المريض . واشهر الاطباء الذين نهجوا هذا المنهج طبيب نمسوي يدعى سكودا نال حظاً وافراً من العلم وبراعة فائقة في التشخيص ولم يكن يعير العلاج اقل التفات بل كان يقول ان الادوية لا تفيد شيئاً فكان يصرف اهتمامهُ الى تشخيص الداء واثبات صحة تشخيصهِ بتشريح المريض بعد موتهِ وتبعهُ في ذلك جماعة من الاطباء في فينا وغيرها

ثم اخذت الكيمياء الآلية تتقدم شيئًا فشيئًا فاكتشفت المواد التي تستخرج من قطران الفحم الحجري وهي كثيرة جدًّا فزادت المواد الطبية بها زيادة فاحشة وهي على ازدياد يومًا بعد يوم حتى صار الاطباء يحارون فيها . لكنَّ ذوي الحنكة منهم لا يصفون الاَّ القليل منها ولا يعوّلون الاَّ على ما ثبت نفعهُ . وقد جمع بعضهم نحو عشرين نوعًا من الادوية رأى انها كافية للمعالجة وهي هذه : الافيون والزئبق والكينا وجوز القيء والديجيتال والزرنيخ والفصفور والارجوت والبلادونا والكلورال والبزموت والبروميدات والمنوّمات والمسهلات والمطهرات والمنبّهات ومضادات الحرارة والخلاصات الحيوانية والمصل واللقاح . ولا يخفى ان لكل صنف من هذه الاصناف فائدة نوعية خاصة . هذه هي الادوية التي استخرجها الدكتور هوشار الفرنسوي من بين الآلاف المؤلفة منها المفردات الطبية في ايامنا وقد كان اكثرها معروفًا عند القدماء اما المصل واللقاح فمن الاكتشافات الجديدة

واكتشفت علاقة المكروبات بالامراض في النصف الاوّل من القرن الماضي ولم تكد تعرف ماهيتها حتى اكتشف باستور اللقاح الواقي من البثرة الخبيثة والكلب ثم اكتشف بهرنغ العلاج بالمصل فجاء بفائدة كبيرة في علاج الدفتيريا والكزاز ومم الحيات . والمصل الذي يعالج به نوعان احدهما الانتيتكسين ومعناهُ ضد السم وقد اطلقنا عليه اسم الترياق وهو مضاد للسموم التي تفرزها المكروبات المسببة للداء كترياق الدفتيريا والكزاز ولبعض السموم الاخرى المشابهة لها كترياق سم الحيات (Antivenin) فجراثيم الدفتيريا مثلاً تفرز سمًّا يسير في الدم ويسبب الاعراض التي ترى في هذا الداء وفائدة ترياق الدفتيريا انهُ يقاوم فعل هذا السم . اما النوع الثاني من المصل الذي يعالج به فهو مضاد للمكروبات نفسها فيقتلها او يمنع نموها كالمصل المستعمل في علاج حمى التفاس والحمرة والالتهاب الرئوي والالتهاب السحائي والتيفويد والكوليرا والطاعون . على ان بعض هذه الترياقات مشكوك في فائدته . ولكلٍّ من الكوليرا والطاعون والحمى التيفويدية لقاح للوقاية منهُ وهو غير المصل المستعمل في علاجه ويجب التمييز بين الاثنين

ووجد الاطباء بعد ذلك ان بعض الامراض سببها احياء حيلية تعيش في الدم والانسجة فمن الامراض التي اكتشفت حيلياتها الملاريا وداء النوم والحمى الراجعة والداء الزهري وبقيت امراض اخرى يظن ان سببها احياء حيلية لم تكتشف حتى الآن منها السرطان والحمى الروماتزمية والجدري والحمى الصفراء والكلب وبعض الامراض الجلدية . وهذه الاحياء المعروفة بالحيليات تختلف كثيرًا عن الاحياء المعروفة بالبكتيريا فالبكتيريا نباتات وحيليات

الامراض حيوانات وعلاج هذه غير علاج تلك. ومن خواص الجلسيات انها تعتاد على بعض الادوية فلا تعود الادوية تؤثر فيها وهذا ما جعل ارلخ يفكر في ايجاد علاج فعّال يتناولهُ بجرعة واحدة او جرعتين فاخذ يبحث في مركبات الزرنيخ الآلية وغيرها فاكتشف مركبًا لعلاج كل من داء النوم والزهري وحمى الريع وحمى تكساس يقتل الجراثيم التي تسبب هذه الامراض دون ان يلحق ضررًا بالمصاب

فيظهر من ذلك ان الطب تقدم كثيرًا في هذه السنوات فيما يختص بالوقاية والعلاج. فبعض الامراض كالجدري والكلب والبثرة الحبيثة يمكن الوقاية منهُ بالتلقيح وربما امكن ايضًا الوقاية من الكوليرا والحمى التيفويدية والطاعون. وبعض الامراض يشفى بعلاجهِ بالمصل كالدفتيريا والكزاز وسم الحيات وحمى النفاس والحمرة وربما امكن ايضًا شفاء الكوليرا والطاعون والحمى التيفويدية. اما الامراض التي سببها احياء حيلية كالملاريا وداء النوم والزهري وما اشبه فان الطب سائر سيرًا حثيثًا في اكتشاف دواء خاصٍّ لكلٍّ منها

الطاعون والجرذان

قلما يمضي يوم ولا يموت واحد او اكثر بالطاعون في هذا القطر. وقد مرّت سنوات كثيرة والحال على هذا المنوال لا تزيد الوفيات حتى يقال ان الوباء انتشر في القطر ولا تنقطع حتى يقال انهُ زال منهُ تمامًا. ولا نعلم ان احدًا بحث بحثًا علميًّا مدققًا عن سبب بقاء الطاعون في اماكن مختلفة من القطر المصري وعدم انتشاره فيهِ واتخاذهِ الصفة الوبائية العادية مع ان ميكروبهُ لم يزل قتالاً كما كان في العصور الخالية فقد مات بهِ في بلاد الهند منذ سبع سنوات اكثر من مليون نفس ومات بهِ الوف كثيرة هذه السنة في الصين ومنشوريا

ولم يكن الاقدمون يعرفون سبب الطاعون ولا كيف تنتشر عدواهُ اما الآن فعرف ان سببهُ ميكروب من الميكروبات وان عدواهُ تنتشر عادة بواسطة الجرذان بل بواسطة البراغيث التي تكون في ابدان الجرذان. فيظهر الوباء في الجرذان اولاً ثم ينتقل منها الى الناس بواسطة البراغيث التي تكون في ابدانها وتنتقل منها الى بدن الانسان. فالطاعون اصلاً وبأ من اوباء الجرذان ينتقل منها الى الانسان. ولهُ اربع بؤر لا ينقطع منها الواحدة منهُ في ولاية يونان ببلاد الصين والثانية في سفح جبال حملايا بالهند والثالثة في اوغندا في قلب افريقية والرابعة في بلاد العرب. ويقال الآن انهُ ليس اصلاً في الجرذان بل هو دخيل فيها